﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ [فصلت: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الآلهةُ المزعومةُ لن تنفع المشركين بشيءٍ يوم القيامة

بعد أن وضَّحتِ الآيةُ السّابقة أنَّ مرَدَّ العلم بالساعة إلى الله وحده، وأنَّ الكفّار سيندمون فيها على اتِّخاذهم شركاءَ من دونه، وسينفون شهادتهم وعلمهم بحقيقة هؤلاء الشُّركاء؛ ناسب أن تعطفَ هذه الآيةُ على جهلِهم ما يفيد عجزَ تلك الآلهة المزعومة عن أن تفعل لهم أيَّ شيءٍ في هذا اليوم، أي: "لمّا قرَّر جهلهم؛ أتبعه عجزهم"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَلَّ﴾: (ضلل) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعنًى واحِدٍ، وهو ضَياعُ الشَّيءِ وذَهابُهُ في غَيرِ حَقِّهِ، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغَتانِ، وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصْدِ ضالٌّ[2]، ويُطلق الضَّلالُ على كلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، ومن معانيه: الضّياعُ والخسرانُ والغياب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر: 47]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد: 1]، أي: خسروها، ولم يحصلوا على ثوابها[3]، ومعنى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: غاب عنهم.

2) ﴿يَدْعُونَ﴾: (دعو) أصلٌ واحِدٌ، وهو أن تُميلَ الشَّيءَ إلَيكَ بِصَوتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ، تَقولُ: دَعَوتُ أدعو دُعاءً[4]، والمعنى المحوريُّ: جَذْبُ الشيء، أو محاولة ضمِّه إلى حيِّز أو أمر، وكلُّ ما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 300، والراغب، مفردات القرآن: (ضل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

عُدّيَ بـ (إلى) أو باللام؛ فهو مِن الدَّعوة إلى دين أو عمل، وبعضُ ما هو بهذا المعنى مُعَدًّى بنفسه[1]، ومن معانيه: العبادةُ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ [الأنعام: 71]، أي: أنعبدُ، وقال: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الحج: 13]، أي: يعبد، وقال أيضًا: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ [فصلت: 48]، أي: يعبدون[2].

3) ﴿مَّحِيصٍ﴾: (حيص) أصلٌ واحِدٌ، وهو المَيلُ في جَورٍ وتَلَدُّدٍ، يُقالُ: حاصَ عَنِ الحَقِّ يَحيصُ حَيْصًا؛ إذا جارَ[3]، ومعناه المحوريُّ: ضيقُ الفتحة في الشَّيء، أو بين الشَّيئين ضيقًا شديدًا، كالعين الحوصاء يحيد جفناها، أو أحدهما عند مُؤَخِّرها، فيكادان يتضامّان، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: 121]، أي: لا يجدون مكانًا (مَأوًى أو طريقًا) يحيدون عنها إليه، ولو كان ضيّقًا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبيّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ الآلهةَ الَّتي عبدها المشركون مِن دون الله أعجزُ مِن أن تدفع عنهم شيئًا مِن عذاب الآخرةِ وهَولِها، وأنَّهم لن يجنوا مِن وراء عبادتِهم لها سوى الخسرانِ والعذاب، الَّذي لن يجدوا مكانًا يهرُبون إليه؛ ليُنجيَهم منه[5].

لن يجد الكفّارُ يومَ القيامة مكانًا يهرُبون إليه؛ لينجيَهم من عقاب شركهم بالله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

الواو في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾؛ استكمالًا لبيان ما سيحدثُ للكفّار يوم القيامة الَّذين سألوا

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دعو).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 601.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيص).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوص).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 364، بتصرف.

رسولَ الله عن موعده، فأخبرهم القرآنُ بأنَّ مردَّ العلم به إلى الله، ووضَّح لهم ولغيرهم أنَّ المشركين سيتبرَّؤون فيه من أصنامِهم، وينكرون اتِّخاذَها آلهةً مِن دون الله، ولن يجدوها معهم تنفعُ، أو تشفعُ، والمعنى: "قالوا ذَلِكَ، ولَم يَجِدوا واحِدًا مِن أصنامِهم"(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الضَّلال مادَّة وصيغة:

لن يجد الكفارُ مِنَ الأصنام يوم القيامة نصرًا ولا شفاعةً

عبَّر النَّظمُ عن غياب الأصنام الَّتي كان يعبدها المشركون عن الحضور يوم القيامة بالفعل: ﴿وَضَلَّ﴾؛ لِما لكلمة الضَّلال من أثر شديدٍ يدفع المتلقّي إلى النُّفور ممّا يكون سببًا فيه؛ لدلالتها على التّيه والتَّخبُّط وعدم الاهتداء، وأوثرَ التَّعبيرُ به ماضيًا؛ لِما يفيدُهُ من تحقُّقِ الفعل وتأكيد حصولِه من غير شكٍّ أو ريبٍ، والمعنى: "لَمْ يَجِدوا ما كانوا يَدعونَهُم مِن قَبلُ في الدُّنيا، قالَ تَعالَى: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۖ﴾ [الأحقاف: 28]، فالمُراد بِهِ هُنا: غَيْبَةُ أصنامِهم عَنهُم، وعَدَمُ وُجودِها في تِلكَ الحَضرَةِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَن كَونِها مُلقاةً في جَهَنَّمَ، أو بَقيَت في العالَمِ الدُّنيَويِّ حينَ فنائِهِ"(2)، ويمكن أن يكونَ التَّعبيرُ بفعل الضَّلال كنايةً عن أنَّهم لم يجدوا من تلك الأصنام نَصرًا ولا شفاعةً(3)؛ بسبب عجزِها، أوغيابها عن المشهدِ الأخرويِّ بعد تحطُّمِها في الدُّنيا.

وجهُ التَّعبيرِ بشبه الجملة:

ضـــررُ اتِّـخـاذ المشركين آلهة مِن دونِ الله عاد عليهم بالخيبةِ والـــعـــذاب، لا على غيرهم

﴿عَنْهُم﴾ جار ومجرور متعلِّقانِ بالفعل ﴿وَضَلَّ﴾، والضَّمير فيه يرجع إلى المشركين، وفي التَّعبير به زيادة في حسرة الكافرين وحزنهم، ببيان أنَّ ضررَ اتِّخاذهم آلهةً مِن دون الله تعالى عاد عليهم بالخيبة والعذاب لا على أحدٍ غيرهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 315.

دلالةُ التَّعبير باسم الموصول:

الآلهةُ المزعومة لا تعقل أو في حكم ما لا يعقل

عبَّر النَّظمُ عن المسند إليه باسم الموصول الموضوع لغير العاقلِ، فقال: ﴿مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾؛ لأنَّ تلكَ الآلهةَ لا فعلَ لها في الحقيقةِ؛ لكونها ممّا لا يعقل أصلًا كالأصنام، أو مِمّا هو في حكم غير العاقل، ممّا لا يستطيعُ فعلَ شيءٍ[1]، وفيه تشنيعٌ لفعلهم، وتقبيحٌ لصنيعهم؛ بسبب عبادتِهم آلهةً لا تضرُّ، ولا تنفع، وتركهم عبادةَ اللّهِ القدير.

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الكينونة مادَّة وصيغة:

عبادةُ الأصنام تغلغلت في كينونة المشركين وترسَّخت

وعبَّر النَّظمُ الكريم في جملة الصِّلة بالفعل: ﴿كَانُواْ﴾ ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجمع العائد إلى المشركين؛ للدِّلالة على أنَّهم أقاموا على عبادة الأصنام طيلةَ حياتِهم حتّى تغلغلت في كينونتِهم، وصاروا لا يستطيعون التَّخلُّص منها، أو الانفكاك عنها، وأنَّهم مع وصولهم في عبادتها والإخلاص لها تلك الدَّرجة لم يجنوا مِن ورائها إلّا الضَّلال والخذلان والعذاب.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يَدۡعُونَ﴾ مضارعًا:

عبادةُ الأصنام كانت عادةً مِن عادات المشركين وطقسًا من طقوس حياتهم

كما عبَّر النَّظمُ عن عبادة المشركين للأصنام بالفعل: ﴿يَدۡعُونَ﴾ مضارعًا؛ لِما يفيده التَّعبيرُ به مِنَ الدَّلالة على تجدُّدِ عبادتهم لها، واستمرارهم عليها، حتى صارت عادةً مِن عاداتهم، وطقسًا من طقوس حياتِهم، بجانب ما يفيدُه المضارع مِن استحضار صورة المشركين، وهم يتوسَّلون إلى تلك الأحجار، ويبتهلون، آملين في جلب المنفعةِ ودفع المضرَّة، ومع ذلك لم تجلب لهم نفعًا، ولن تجلبَهُ، ولم تدفع عنهم ضُرًّا، ولن تدفعَهُ.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ هي البيانيَّة المؤكِّدة عبادةَ المشركين للأصنام مِن دون الله، قبل موتِهم وبعثِهم للقاء اللّهِ سبحانه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف: ﴿قَبْلُ﴾:

قوله: ﴿قَبْلُ﴾ ظرف زمان، يُراد به: مدَّة حياتِهم في الدُّنيا، عُبِّر به زيادةً في التَّحسير والتَّنديم؛ لأنَّهم أفنوا أعمارَهم في عبادة ما لا يضرُّ، ولا ينفعُ.

موقع ﴿مِن قَبْلُ﴾ الإعرابيُّ ودلالته:

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقانِ بمحذوف حال مِنَ الضَّمير المرفوع في ﴿يَدْعُونَ﴾، وفيه دلالةٌ على أنَّ الكفار - قبل أن تنتهي أعمارُهم، ويلقوا ربَّهم - كانوا مقيمين دائمًا على عبادة الأصنام مِن دونِ اللهِ ﷻ، وأنَّهم لم يفكِّروا في الإقلاع عنها في وقتٍ من الأوقاتِ، ما يجعلهم جديرين بالعذاب الَّذي أعدَّهُ اللهُ لهم.

حالُ الكافرين قبل لقاء ربِّهم كانوا دائمين على عبادة الأصنام

توجيهُ العطفِ بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا﴾؛ لعطفِ ما بعدها على جملة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، عبَّر بها البيانُ القرآنيُّ؛ للدَّلالة على أنَّ المشركين أيقنوا أنَّهم مِن أهل النّار، ولا محيص لهم عنها، عند ما لم يجدوا آلهتهم حاضرةً أمامَهم، تجلبُ لهم النَّفع، وتدفع عنهم العذاب والضُّرَّ، فاجتمع عليهم بذلك نوعان من الألم، أحدهما نفسيٌّ: وهو ألمُ الخذلان، والآخرُ حسّيٌّ: وهو ألمُ العذاب في النّار، فبلغ عقابهم قمَّته، ووصل ذروته، والمعنى: (وإذ لَم يَجِدوا ما كانوا يَزعُمونَهُ؛ فقَد عَلِموا أنَّهُم لا مَحيصَ لَهُم)"[1].

يجتمعُ على المشركين يوم القيامة ألمُ الخذلان وألمُ العذاب في النّار

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الظَّنِّ مادَّة وصيغة:

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفعل الظَّنِّ ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم﴾؛ للدَّلالة على "أنَّهم لمّا كانوا عريقين في الجهل وسوء الطَّبع؛ كانوا يتوقَّعون أن يظفروا بهم، فيشفعوا لهم،

ظنُّ الكافرين أنَّهم معذَّبون يصل إلى حدِّ اليقين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.

فلذلك عبَّر بفعل الظَّنِّ"[1]، ويمكن أن يكون التَّعبيرُ به جريًا على عادة العرب في التَّعبير بالظَّنِّ عن اليقين؛ للدَّلالة على الرُّجحان أو كونهِ واقعًا - لا محالة - والمعنى: "أيقَنوا أنَّهُم لا مَحيصَ لَهُم، أي: لا مَلجَأ لَهُم مِنَ العَذابِ الَّذي شاهَدوا إعدادَهُ"[2].

علَّةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ هي النّافية العاملة عمل ليس، وأوثِرَ النَّفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصها نفْيَ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النَّفي مِن (ليس)، وأوسع استعمالًا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجمل الاسميَّة فحسب[3]، والنَّفي بـ ﴿مَا﴾ أنسب هنا؛ لأنَّها تفيد - بمعناها ومبناها المختوم بحرف المدِّ - نفي وجود مكانٍ يهرب إليه الكفّار مِن عذاب الله يوم الحساب نفيًا قاطعًا لا حدودَ له.

لا مكانَ يهرَبُ إليه المشركون مِن عذاب يوم القيامة

فائدةُ التَّعبيرِ بالجار والمجرور: ﴿لَهُم﴾، وسرُّ تقديمه:

اللّام في قولهِ: ﴿لَهُم﴾ حرف جرٍّ يفيد الاختصاصَ، والضَّمير المجرور فيه يعود على المشركين، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على اختصاص المشركين الَّذين عبدوا آلهةً مِن دون الله سبحانه بعدم وجود مكان يلجؤون إليه؛ ليحميَهم مِنَ العذاب الَّذي أُعِدَّ لهم على وجهِ الخصوص، وفيه تأكيدٌ لتيقُّنهم أنَّهم معذَّبون - لا محالة - وقُدِّم الجارُّ والمجرور على المسند إليه؛ تعجيلًا لمساءتهم وزيادة في تحسيرهم.

التَّعجيلُ بمساءة المشركين، وزيادةُ تحسيرِهم

معنى ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّحِيصٍ﴾ هي البيانيَّةُ الَّتي تفيد تأكيدَ نفي المكان الَّذي يحيصُ إليه المشركون، كي ينجوا مِن عذاب النّار الَّذي أعدَّه اللّهُ تعالى خصّيصًا لهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 216.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿مَّحِيصٍ﴾ مادَّة وصيغة:

تنكيرُ الاسم الواقع في سياق النَّفي يدلُّ على عمومِهِ كلَّ الأماكن

قولُه: ﴿مَّحِيصٍ﴾ مَصدَرٌ ميميٌّ، أو اسمُ مَكانٍ مِن: حاصَ يَحيصُ؛ إذا هَرَبَ، والمعنى: ما لَهُم مَفَرٌّ مِنَ النّارِ[1]، أوثِرَ التَّعبير به - لأنَّه يُصوِّر بمعناه ومبناه - الذُّعر والنُّفور الَّذي أصاب المشركين يوم الحساب، ودفعهم إلى البحثِ عن مكان يهربونَ إليه، لينجوا من العذابِ الَّذي لاحت بوادرُه، ولكنَّهم لم يجدوا، فأيقنوا أنَّهم معذَّبون - لا محالة - وأنَّ الآلهةَ الَّتي عبدوها مِن دونِ اللّه لن تغنيَ عنهم شيئًا، وأوثِرَ التَّعبير به نكرةً؛ لما يفيدهُ تنكير الاسم الواقع في سياق النَّفي من العموم والشُّمول المفيد انعدامَ كلِّ الأماكن؛ تحقيقًا للغرض الَّذي تقصد الآية إلى ترسيخِه، وهو أنَّ كونَ علم السّاعة مردُّه إلى اللّه لا يعني تكذيبَ الرَّسول المُنذر بوقوعها، والَّذي استدعى بيانَ ما سيحدث للمشركين فيها.

❁ الفُروقُ المعجميّة:

المَحيص والمفَرّ، والمهْرَب:

المحيصُ يدلُّ على الفرار الممزوجِ بالذُّعر والنُّفور، وهو ما لا يتحقَّقُ في غيره دائمًا

المحيصُ هو: المكان الضَّيِّق الذي يلجأ إليه النّاسُ خوفًا ونفورًا من الخطر، أو رغبةً في النَّجاة مِنَ الهلاك[2]، والمَفَرُّ: هو المكان الَّذي يفرُّ إليه الإنسانُ خوفًا وبدون تَستُّر[3]، والمَهْرَبُ هو المكان الَّذي يَجِدُّ المرءُ في الذَّهاب إليه مذعورًا، أو غير مذعور[4]، ويعدُّ التَّعبيرُ بمفردة الـ ﴿مَّحِيصٍ﴾ أنسبَ للسّياق؛ لدلالته على الفرار الممزوج بالذُّعر والنُّفور، الَّذي قد لا يوجد في مفردتَي المهرب والمفرِّ، ولاتِّساقه مع غرض التَّهويل والتَّخويف الرادع عن الشِّرك باللّه وتكذيب الرَّسول الَّذي ردَّ العلمَ بميقات السّاعة وموعدها إلى اللّه جلَّ في علاه؛ زيادةً في التَّرهيب والإنذار.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حوص) بتصرف.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (هرب)، بتصرف.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"